مدام ده سفينيه وعصرها

مدام ده سفينيه ! .. اذا ذكر هذا الاسم تمثلت لنا المركيزة الحسناء ورأين عقارب شعرها الذهبي سابحات على خدّيها ولمحنا امارات الذكاء والحبّ جائلات في مياه عينيها النجلاوين على نحو ما اوجدتهما ريشة الرسّام وصوّرتهما مخيلتنا عند مطالعة رسائلها . ولا نلبث ان نرى وجهَ امرأة اخرى تتناسق خطوطهُ بقرب استدارة الوجه الاول . وهو وجه ان لم يجد فيهِ الباحثون مثل ما في وجه مدام ده سفينيه من الملاحة والافتتان والظرف فان فيهِ من آيات الجمال الباهر ما اهلّ صاحبتهُ لان تُدعى في عصرها « اجمل فتيات فرنسا » . اعني بها الكونتس ده جريغيان(١) ابنة مدام ده سفينيه التي راسلتها امها مدة ٢٧ سنة فكانت مراسلتها اثراً نفيساً في تاريخ الادب اشتهرت بهِ الام والابنة معاً

* * *

كذلك ما ذكرت مدام ده سفينيه الاّ انضمّ الى اسمها اسم القرن الذي عاشت فيهِ اي القرن السابع عشر وقد اطلق عليهِ الفرنساويون اسم ملكهم فدعوهُ « عصر لويس الرابع عشر » (٢) . وحقًّا ان لهذا القرن الواقع بين القرن السادس عشر قرن الانبعاث (Renaissance) والقرن الثامن عشر قرن الفلسفة مركزاً فريداً سواء في فرنسا وفي جميع انحاء اوربا لانهُ موجد الثورة الفكرية السلمية . هو مكوّن تلك الثورة حتماً وان لم تكن فاتحتهُ نذيرة بنتائج عظيمة . ولم يكن ينتظر يومئذٍ ان تخرج الفلسفة من هوّة الخمول التي كانت منهارة فيها . لان ديوان التفتيش (٣) الذي كان لا يزال متمتعاً بسلطتهِ المطلقة في ايطاليا واسبانيا والبورتوغال لم يكن ليهتمّ بالتفريق بين الاغلاط الفلسفية الصرفة والاخلال بالعقائد الدينية . وكانت الحروب الاهلية المتتابعة تمزّق قلب فرنسا ومنازعات

(١) كانت الكونتس ساكنةً في الريف مع زوجها الكونت ده جريغيان الذي كان حاكماً لمقاطعة بروفنسا

(٢) وكانوا قد سموا هذا الملك العظيم Le Roi-soleil اي الملك — الشمس

(٣) (Inquisition) هي المحكمة الدينية المنصرة في اكثر البلدان الكاثوليكية في خلال القرون الوسطى والقرون الاولى من العصور الحديثة . وكانت غايتها البحث عن الهراطقة وايقاع العقوبة بهم

الكلفنيين (٤) تقلق الراحة العمومية والسلام الملائم لنمو الافكار . كما ان التعصب الديني في انجلترا في ايام كرمول (٥) كان يقوم سدًّا امام تيار كل حرية فكرية . وعلى رغم ذلك فقد عقد بعض فلاسفة الانجليز اجتماعاً بسبح كرمول وتحت مراقبته للبحث عن الحقائق العلمية فاذن الملك تشارلس الثاني بانشاء مجمع العلوم (The Royal Society) ولما لم ينل المجمع من الحكومة الا ذلك فقد ظل حرًّا في ابحاثه واعماله التي قادته الى اكتشافات شتى في النور والجاذبية وعلم الفلك فحق للقرن السابع عشر ان يُدعى «عصر الانجليز» كما دُعي «عصر لويس الرابع عشر»

الا ان الغيرة احنقت كولبر (٦) الذي رغب في ان يكون لفرنسا مثل ذلك المجمع فاستصدر من الملك امراً بانشائه واستحضر له كبار العلماء من ايطاليا وهولندا والدنمرك وعين لهم الرواتب الكبيرة (٧) . كذلك اهتم الفرنساويون بالعلوم الطبيعية والجغرافية ودرس طبائع النبات والشرائع والقوانين . واصدروا «جريدة العلماء» وكانت الاولى من نوعها وسقدمة الصحافة الاوربية . ولئن لم تزهر الفلسفة يومئذٍ في فرنسا ازهارها في انجلترا وفلورنسا فقد كان لفرنسا السيادة في عالم الادب وظلت مهذبة اوربا من حيث البلاغة والشعر والنقد الاخلاقي والتعاليم اللاهوتية والاناقة والظرف جميعاً

ما شبه ذلك العصر الفرنساوي بعصور بريكلس (٨) واغسطس (٩) ولاون

---

(٤) Calvinistes . هم اتباع كلفن الذي نشر الاصلاح الديني (Reformation) في فرنسا وسويسرا في القرن السادس عشر ونظم في جنيف جمهورية بروتستانية . وما زالت عقيدته منتشرة في سويسرا وهولندا وهنغاريا واسكتلندا (٥) Cromwell . سياسي انجليزي شهير . وهو بطل الجمهورية الانجليزية عام ١٦٤٥ وزعيم الثورة التي بعث بالملك تشارلس الاول الى الاعدام

(٦) Colbert . وزير من اعظم وزراء فرنسا ومن اشدهم غيرة على وطنهم ومن اكثرهم تنظيماً لدوائر الحكومة . وقد اهتم بترقية الآداب والفنون . غير ان مقامه لم يقوى (الذي خلفه) بقيت على ما كان له من الحظوة في عيني لويس الرابع عشر وايدك حب الجمهور له بالكره الشديد

(٧) من اولئك العلماء رومر (Roemer) الذي قاس سرعة نور الشمس . وهويجنس (Huggens) الذي اكتشف حلقات زحل واحد اقماره . وكاسيني (Cassini) الذي اكتشف اربعة اقمار اخرى هذا السيار

(٨) Pericles سياسي اغريقي نشط الفنون والآداب فاطلق اسمه على اعظم عصر مر على بلاد الاغريق (٩) هو القيصر اكتافيوس اغسطس حفيد يوليس قيصر ووريثه وهو الذي حول الجمهورية الرومانية الى امبراطورية . وقد ارتقت في زمانه الآداب والشعر والخطابة ارتقاء لم تصل اليه بعده

الثامن عشر (١) الا لارتقاء الآداب فيه وسمو الفنون ونبوغ طائفة من اعظم الناثرين والشعراء والفنيين مثل كورنايل وراسين وموليير في الروايات التمثيلية. ولافونتن وبوالو في الشعر. وبوسيه وفنيلون وفليشيه في الخطابة الدينية. ولابروير ولاروشفوكو في النقد الاخلاقي. وبكال في الفلسفة. وسان سيمون ورتز في التاريخ. وبوسن ولبزون وبيرو وماسار وجيراردن وبوجه في الفنون. وقيل ان الفضل في ذلك للملك لانهُ وان لم يبدع عبقرية زمانهِ فقد مهَّد لها السبيل وفتح المجال لنموّها بتأييدهِ الكتَّاب والشعراء واستدعائهم الى بلاطهِ وتعيين الرواتب السنوية لمساعدتهم وتأليف حاشيتهِ وموظفي قصرهِ من افرادٍ اذكياء متعلمين يغارون على الرقي الفكري ويقدرونهُ حق قدرهِ ويعملون في سبيلهِ ما استطاعوا

* * *

قضت الاحوال السياسية بان ينفعل الفكر الفرنساوي بالآداب الاسبانية والايطالية زمناً طويلاً. لان ايطاليا لبثت ميداناً لحروب فرنساوية عديدة قبل ان تبعث الى فرنسا بملكتين من اميراتها هما كاترينا وماريا ده مديتشي. اما اسبانيا فقد استعانت بما كان لها من سطوةٍ واقتدارٍ في عهد كارلس الخامس وفيليب الثاني لنشر لغتها وآدابها في جميع انحاء اوربا ولاسيما في فرنسا عدوتها القديمة (٢). لكن ما اخذت الافكار واميول بالتحول قليلاً قليلاً في اوائل القرن السابع عشر حتى اشتمَّ ان الوقت الذي تتسم فيهِ الآداب الفرنساوية بوسمتها الخاصة ليس بالوقت البعيد

وقد امتاز ذلك القرن بوساطٍ ثلاثة كانت الدوائر الجوهرية التي انطلقت منها الحركة الفكرية والاجتماعية وتلك الاوساط هي: قصر الملك في فرساي واوتيل ده رمبوليه وبورت رويال

---

(١) لاون العاشر هو يوحنا دي مديتشي بدا روما في اوائل القرن السادس عشر. وقد كان ولوعاً بالفن القديم فصار ظهيراً للفنون والآداب والعلوم

(٢) وقد زالت تلك العداوة بمصاهرة العائلتين المالكتين. فقد تزوج لويس الثالث عشر بالاميرة حنه ابنة الملك فيليب الثالث وزوج شقيقته ولي عهد اسبانيا الذي ملك بعدئذٍ باسم فيليب الرابع

فتعسر ملك فرنسا فضلاً عن انهُ كان يضم بين جدرانهِ اذكياء الموظفين والاعوان وينزل فيهِ العلماء والشعراء على الرحب والسعة كانت تقام فيهِ سهرات راقصات وحفلات شائقات للفن والادب تُمثَّل في خلالها الروايات الشعرية غنائية وتاريخية ونقدية ويدعى الى حضورها سراة القوم ووجوههم . فيظهر في هذه الاحتفالات من العظمة والابهة ما يرفع الملك في عين همتهِ ويحث ملوك اوربا على تتبع خطاهُ حتى صار بلاط فرسايل قدوةً تقتدي بها قصور الملوك في جميع عواصم الغرب

اما اوتيل ده رمبوليه فان صاحبتها المركيزة ده رمبوليه كانت على جانب عظيم من العلم والذكاء . فصارت تستقبل زائريها وبينهم كبار القواد واعاظم الاشراف ومشاهير الكتَّاب والشعراء في غرفة عرفت في تاريخ الادب باسم « الغرفة الزرقاء » . وتدور هناك المباحثات في موضوعات ادبية ولغوية واجتماعية وكلٌّ يجتهد في اتقان فن الحديث الذي لهُ مقام رفيع عند الفرنساويين وقيل انهم يجيدونهُ اكثر من اي شعب آخر . وكان الزوار يقتدي بعضهم ببعض في الصفات فيتعلم الاشراف من الكتاب علوّ الفكر وسموّ المدارك وحصافة الرأي ويعد النظر ويقتبس الكتاب عن الاشراف ظرف الكلام والابتسام والتفنن في اساليب الحديث واللباقة في اللبس والحركة ويشيرون مثلهم بإشارات الكبراء . وينضم الى الرجال بعض انسيدات من شريفات متعلمات وكاتبات فيزيد وجودهن في رونق الاجتماع وتشحذ به قرائح الحاضرين . حتى اصبحت دار رمبوليه هيكل الذوق السليم الذي تتمثل بهِ كل دار كبير وعظيم وتسري ازياؤهُ ونصوصهُ وعاداتهُ في كل اجتماع فخم (٣)

* * *

ويصح القول بان الفضل في تأسيس الاكاذيميا الفرنساوية عائد الى اوتيل ده

(٣) لقد كانت اوتيل ده رمبوليه اول الصالونات الادبية (Salons Littéraires) الفرنساوية التي صار لها فيما بعد من الاهمية والتأثير في احوال الشعب ما لا محل لذكره هنا . ومن اشهر تلك الصالونات في القرن الثامن عشر صالون المركيزة ده لمرت وصالون مدام جوفرن وصالون مدام تكر (زوجة الوزير الفرنساوي الشهير ومالك مدام ده ستايل) وصالون مدام دني ديفان مراسلة فولتر الكبير . هناك كان يلتقي الساسة والعلماء والشعراء وهناك اتحدت كلمة الانسيكلوبيديين على وضع دائرة المعارف الفرنساوية خدمة لعلم ورغبة في ترويج الآراء الفلسفية والافكار الحديثة ويطلق اسم الانسكلوبيديين على ديدرو ودالمبر وفولتر وجان جاك روسو واشباههم من احرار المفكرين في القرن الثامن عشر

رمبوليه (٤) لان اعضاءها الاولين كانوا من زواره الفرقة الزرقاء حيث اعتادوا التأنق الفكري والكلامي. فصار بضعة اشخاص يجتمعون في مكتبة احدهم المدعو كوتزار (وكانت مكتبتهُ هذه واسعة فاخرة) للمباحثة الادبية وتبادل الاخبار. واذا الف احدهم كتاباً عرضهُ على رفاقهِ قبل طبعهِ فيبدون فيهِ رأيهم بحرية وصراحة. وظلوا على هذه الحال الى ان اتصل خبرهم بريشليو (٥) وهو على ما هو من الانانية والدهاء

فعرض عليهم ان يحول اجتماعهم الى مجمع تحت رعاية الحكومة او رعايتهِ. فارغموا على القبول. واخذت الاكاديميا شيئاً فشيئاً هيئتها الرسمية وغايتها تنقيح اللغة وتطييرها وتوسيعها ولم تمتلىء كراسيها الاربعون الاَّ بعد سنوات اربع لتصعيبهم في اختيار الاعضاء. وجعل كوتزار الذي نشأت الاجتماعات في مكتبتهِ سكرتيراً دائمًا للمجمع (٦)

---

(٤) البيت الاجتماعات في دار رمبوليه نحو عام ١٦٤٨ لان القلائل الاهلية شغلت شمل الاعضاء وقد حل بالمركيزة مصائب شتى من خسارة مال وفقد ولد وحبيب فنظمت هذه الابيات لتكتب على ضريحها:

"Ici gît Arthenice exempte des rigueurs
Dont l'âpreté du Sort l'a toujours poursuivie.
Et si tu veux, passant, compter tous ses malheurs,
Tu n'auras qu'à compter les moments de sa vie."

(٥) Richelieu اكبر وزراء فرنسا في عهد لويس الثالث عشر

(٦) يكاد جميع مختار الكتاب في ذلك العصر يمتون من اعضاء الاكاديميا الاولين وهم: ديكارت الفيلسوف وقد قضى اكثر سني حياته خارج فرنسا. وبسكال الفيلسوف وارنو اللاهوتي لانهما كانا من اتباع جانسينوس (×). والاب بورداو الذي تناول من هذا الشرف لانه كاهن. وموليير لانه كان ممثلاً. وقد وضعت الاكاديميا بعد موته صورته في قاعة جلساتها وتحتها هذا البيت:

"Rien ne manque à sa gloire, il manquait à la nôtre."

وجانسينوس المشار اليه Jansenius هو مؤلف كتاب الاوغسطينوس (Augustinus) وفيه يسرد آراء القديس اغسطينوس وما نعى في نظره في ما يتعلق بالنعمة والقضاء والقدر وتحديد الاختيار البشري. وقد ظهر هذا الكتاب بعد وفاة مؤلفه فبدته الكنيسة لكن طائفة من كبار علماء فرنسا تشيعت له واعتنقت نظرياته كعقيدة دعيت الجانسنيسم (Jansenisme). وكان زعماء هذه العقيدة يكتنون بورت رويال

غير ان التأثير الاعظم كان لبورت رويال (٧) الذي ادّى خدمات جليلات للآداب واللغة في عصر لم تكن فيه للغة الفرنساوية آثار تذكر . فابدع اولئك العلماء والمفكرون لنفسهم اسلوباً جليًّا واضحًا خالياً من التطويل والحواشي الرنّحة في اوتيل ده رمبوليه سليماً من المبالغة والتكلف المستمسنين في بلاط الملك والاندية الادبية والاجتماعية . فكان اسلوبهم المختصر البليغ بدعة العصر الكتابية . وما عدا مشاهير الافراد مثل بسكال وارنو ونيقول الذين نشروا كتاباتهم كلٌّ تحت اسمه فان كل ما الفهُ زهاد بورت رويال كان غفلاً من التوقيع او موقعاً باسم مستعار لان ضمير المتكلم لم يكن مستحسناً عندهم فيبدلونهُ بكلمة "On" الفرنساوية . وما كانوا عليهِ من انكار الذات والانقطاع الى العلم والدين والفلسفة كان يرغّب الناس في التقرب منهم كما ان الاضطهاد اللاحق بهم لتشبثهم بآرائهم واخلاصهم لعقيدتهم كان يجعلهم محبوبين محترمين ويساعد في نشر مؤلفاتهم . فانضم اليهم نفر غير قليل من اعاظم العصر وايّ هم المشاهير من رجال ونساء فظهر ارهم في الاقلية الراقية في زمن كانهُ لوامع سطحية وخفقة اجتماعية

* * *

في هذه الاوساط الثلاثة الكبرى كانت مدام ده سفينيه تتلقى دروس الاجتماع والادب والتفكر . فتجدُ في البلاط من مظاهر المجد الباسق والزينة والبهاء ما يلائم دوتها الارستوقراطي وتختلط بامثالها الاشراف والاعيان فتفتخر اذا ما ادنتها الملكةُ منها لتسألها عن ابنتها مدام دي جرينيان . ويراقصها الملك فيزيد اعجابها بهِ وتقول « حقًّا انهُ ملك عظيم ! » . وكانت ولوعاً بهذه الاجتماعات تصف كل حادثة من حوادثها بقلمها الرشيق في رسائلها الى ابنتها واصدقائها

كذلك في اوتيل ده رمبوليه حيث كانت تلتقي بكثيرين من مدعوّي البلاط.

---

(٧) Port Royal . دير شيد في القرن الثالث عشر للراهبات البرناردينيات في وادي شفروز على مقربة من فرساي . وقد اصبح في القرن السابع عشر تحت رئاسة انجليكا ارنو مكان عزلة يلجأ اليه الزهاد من كبار الكتاب . وقد سكنه الفيلسوف بسكال وامثاله كلسترده ساسي ونيقول وارنو الكبير ولانسلو وغيرهم وهم الذين وضعوا المؤلفات النفيسة في اللاهوت واللغة والمنطق . اعتنقوا عقيدة جانسيوس فقامت المشاحنات بينهم وبين اليسوعيين واففل الدير بامر لويس الرابع عشر عام ١٧٠٥ وهدم سنة ١٧١٠ . وكان له فرع في باريس يدعى « بورت رويال باريس » تسكنه الراهبات وتتردد عليه الشبان الجانبية

فتختلف الموضوعات وتتناول الاحاديث معاني الشعر والادب واللغة . فتعرض على أصحابها رسائل ابقتها وتنقل اليها رأيهم في تلك الرسائل وكلهُ مدحٌ وثناء واعجاب متزايد . وهناك تعلمت الناشئ الذي عمّ فيما بعد حتى تخلّقت به اكثر نساء فرنسا فدعين « المتصنعات » او « المتأنقات » (Precieuses) وقد رشقهنّ موليير بسهام انتقاده في روايته الشهيرة Les Précieuses ridicules

اما صداقتها لعلماء بورت رويال فلم يعترها فتورة او ملل وقد كتبت في مدحهم والثناء على مصنفاتهم وخطبهم وابحاثهم فقرات خالدات

قالوا ان المراسلة مسايرة كتابة . ولما كان فنّ الكلام من فنون النساء كانت كتابةُ الرسائل تسهل عليهنّ . وقد تجيد الواحدة منهنّ في هذا الصنف من الادب ولو نشئت في كلّ صنف آخر ... هذا رأي الرجال في المسألة . وسواء كان رأيهم صحيحاً او مبالغاً فيه فان فن المراسلة شاع شيوعاً عظيماً بين نساء القرن السابع عشر . فاقبرت طائفة من أشرفهن نسباً وارفعهن مقاماً تحمل القلم نادرة افكارها على الجمهور في الروايات والشعر والرسائل جميعاً . ولمدام دد مانتنون زوجة الملك لويس الرابع عشر الثانية ولمدام دد مونتسبان وغيرهما مكاتيب شائقة لكن مدام دد سفينيه فاقتهنّ جميعاً فصار فن المراسلة لديها نياً شهياً مهما كان يتضمنهُ من حوادث اجتماعية ومداعبة — تلك المداعبة الفرنساوية التي كانت تظهر في احلاق الكاتبة ظهوراً جلياً . حتى قال فولتر انها اكتب كتّاب عصرها في انشاء الرسائل خصوصاً فيما يتعلق بسرد الحوادث التافهة بذوق ولباقة

***

قال قوم ان لا قيمة لهذه الرسائل (بقطع النظر عن جمال لغتها وحسن سبكها) الا لانها تاريخ الاجتماع الفرنساوي في النصف الثاني من القرن السابع عشر . ولكنها ليست فريدة من نوعها في هذا الموضوع . لان هناك مذكرات الكاردينال دد رتز وتاريخ سان سيمون وهما من اوفى المؤلفات التاريخية يشهدان بما لكاتبيهما من المهارة والتفوق . وقال آخرون ان جمال الرسائل قائم في كونها ترسم شخصية الكاتبة . ولكن رسائل شبشرون وفولتر ترسم شخصية كلّ منهما وتمثل ما في تينك الشخصيتين الكبيرتين من الاهمية وبعد الغور . فلماذا نحن رسائل مداه دد سفينيه اكثر منا اعجاباً برسائلهما ؟

أظن لاننا نجد في رسائل شيشرون وڤولتير الشخصية التي نتوقع رؤيتها : ففي الاولى نرى المتشرع والخطيب في الايام الاخيرة من ايام الجمهورية الرومانية عا يعز اسلوبهُ من افكار سامية وعبارات فخمة. وفي الثانية نجد تدفيق الباحث ورغبة المفكر في الاصلاح والقلم الرشيق الذي يخلق من كل كلمة يخطها سهماً نافذاً في كبد من اتخذهُ موضوعاً لنقده بينما تلوح على شفتيه تلك البسمة الڤولتيرية العجيبة

اما من مدام ده سڤينيه فتتوقع رؤية المرأة العظيمة تولدها رزواجها ونسبها جميعاً التي عاشت في عصر هو من اكثر عصور الملكية الفرنساوية ابهة وزهواً وما من شيء لاهله الا ترثرة الاندية وحوادث الاجتماع والرتب العسكرية والحفلات الراقصة والاعياد والازياء وما نحوها . وقد كانت كل ذلك لانها كانت « مركيزة » بكل معنى الكلمة فلم تهمل يوماً الواجبات المنوطة بمركزها ولقبها ولم تتنازل مرة عما يخولانها من الحقوق والامتيازات . لكنها كانت اكثر من ذلك في بعض جمل من رسائلها ما اكثر ما تذهل قارئها للمرة الاولى ! لانهُ يجدُ امامهُ نفساً كثيرة التناقض مختلفة الميول متضاربة الآراء حادة النشاط لا تستريح لحظة. كأنها طائر جميل يريد ان يلمس بجناحيهِ جميع الافنان

في ذلك القرن الذي كان فيهِ الجمهور يحكم العادة لا بحكم الاقتناع متعلقاً بالسدة الملكية تابعاً عقيدتها الدينية كان لمدام ده سڤينيه اهتمامٌ بالسياسة ومشاغل دينية . وكان مطالعتها لمؤلفات اصدقائها الجانسنيين تدفع بها احياناً الى اعلى ذرى الفكر والتأمل . لا اعني انها شعرت بتلك القشعريرة التي هزت بكال امام فكرة الخلود والابدية . لكن كل فكرة عميقة تتطلع عليها تترك في نفسها السريعة الانفعال دوياً فتكتب الى ابنتها : « جدتي مرتبطة بمعاهدة تكثر ارتباكي وقد ركبتُ بحر الحياة على غير رضى أو معرفة. فكيف اخرج من هذا البحر ؟ . من اي جهة او من اى منفذ ؟ . وماذا اكتب في صحيفتي امام عيني الله ؟ . »

قالوا ان مدام ده سڤينيه « مخبرٌ » بارع يلتقطُ الاخبار من جميع الدوائر ويدونها بامانة مع جمال في الاسلوب وأناقة في الالفاظ يبعث بحوادث المدينة والبلاط الى اصدقائهِ الريفيين . وكل ذلك صحيح . غير اني أرى ان قلب مدام ده سڤينيه كان منهل تشوقها . الكاتب الاول منها هو الكاتب المحب والكاتب « المخبر » يأتي بعدهُ . الكاتب الاول هو الذي يكتب مدفوعاً بعواطفهِ القوية

فلا يخطر ببالها ابداً ان يبعث عن عالم وجد وحنين ولان نفسه تلتهب شوقاً وهياماً

معلوم ان لكل مرىء حظ كبيراً في حياته مهما تعددت ميوله وتوارت شواغله وكثر اصدقاؤه . ومدام ده سفينيه التي كانت ودودة الفطرة محبة القلب لم تجد سبيلاً لاظهار عواطفها في طفولتها لانها كانت يتيمة الوالدين . فظلت قواها الحبية مدفونة في فؤادها الى حين تزوجها بالمركيز ده سفينيه الذي لم يكن اهلاً لتعلقها به لما كان عليه من الطيش والغرور . فخلصت له حياً وميتاً وقد دفنت قرب جثة الابنة لوالديها حب الزوجة لزوجها لتسكب الحنين في حب الوالدة لولديها . ترجع اليها شبيهاً بابيه فصرفت كل عواطفها نحو ابنتها الكونتس ده جرينيان التي كانت دائماً موضوع ولعها الاكبر وشغفها الاوحد

لقد اتهم المؤرخون بدرس حنين الكونتس ده جرينيان فقال بعضهم بتجرد عواطفها وصلفها واثبت آخرون عكس ذلك . والحقيقة انها لم تسعد مع زوجها الذي لم يكن يختلف كثيراً عن ابيها واخيها وان كان يكبرها باكثر من عشرين سنة . فسكنت على الدرس هرباً من اليأس والملل وشغفت بفلسفة ديكارت فزاد ذلك ما كان قد وضعه الالم في نفسها من الميل الى اعتزال الناس والمبالغة في كتم العواطف . وكانت امها على نقيض ذلك لانها من الذين لا يذوقون حلاوة العاطفة الا بالمجاهرة بها على رؤوس الملأ ليشهد الجميع بصحتها وقوتها . فكانا اجتمعتا سوياً في باريس او في قصر جرينيان كان هذا الاختلاف يوجد بينهما ألماً وكدراً متوالياً فتوجع كل منهما الاخرى على غير قصد . حتى اذا افترقتا انساها البعد غيظهما وعادت مراسلتهما ذاهبة آتية بين باريز وجرينيان . وما ذلك الا من حظ التاريخ الادبي وحظ القراء جميعاً

ولم يبق من الكونتس دي جرينيان سوى اربع رسائل يستشف منها علو الفكر وسمو النفس . وسواء كانت جامدة العواطف او شديدة الاحساس فان امها احسنت حباً لم تحاسب فيه على شيء فكن تتاول عن شطة من يرى عند حبيبه ما عنده وذلك شأن الحب الحقيقي

سكبت على ذلك الوجه الجميل حبها واماتيها وكتبت لتقضي على ابنتها بذلك الحب فجمدت عواطفها خالدة . فلم تكن مدام ده سفينيه امرأة متفوقة في فكرها بل في شعورها . وذلك على قول البعض اعظم نبوغ وافضل عبقرية

(يتبع)